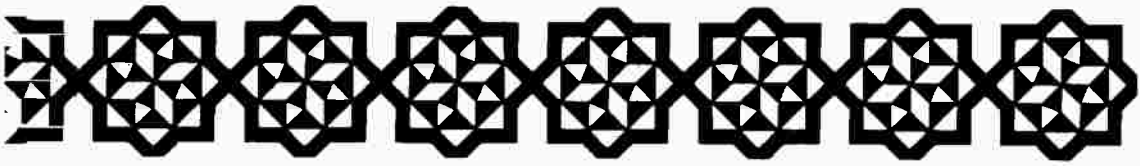

الفصل الأول

الخلافة الأموية تحكم العالم الإسلامي

— ١ —

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ — ٦٦١ م على مقاليد الحكم ، وشئون الخلافة الإسلامية ، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق فى الشام ، وظلت هى العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م .

ودمشق هى مدينة « جِلَّق » القديمة التى أشار إليها حسان فى شعره :

لله دَرُّ عصابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يوماً بِجِلَّقَ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

ويكاد يكون الإجماع على ذلك (١) .

وسموا دمشق : جِلَّقَ الخضراء والغوطة ، وذات العماد ، ولُقبت بالفَيْحَاء ، والفيحاء : الواسعة من الدور والرياض .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر المتوسط نحو ستين ميلا ، وتقوم فى نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون فى التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب .. وهى مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد « بَرَدَى » الذى كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة . وقد استولى على دمشق فى القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعنة والأرمن .

---

(١) دمشق ، محمد كرد على ، وقيل إن « جِلَّق » هى كورة غوطة دمشق كلها .

واقتحمها إسكندر المقدونى ، ودخلت فى حكم خلفائه ضمن دولة اليونان ، ثم صارت أغلى درة فى الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسى . وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويدًا رويدًا ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب ، والشام ، وبلاد فارس ، ومصر .

وفتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة ــ ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها ، وانتصاره على بنى غسان فى يوم فصحهم ، ورفعه للعقاب راية الرسول فى أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها ، فأبو سفيان بن حرب شيخ بنى أمية وأحد زعماء قريش كان كثيرًا ما يفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخارى فى صحيحه .

تولى فتح المدينة كُلٌّ من أبى عُبيدة بن الجَرَّاح وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحاً ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحاً كلها فى العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول : سلام عليك يادیار سوريا ، **سلاماً لا لقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بيزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .**

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات عام ٢١ هـ ــ ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن أبى سفيان من قِبَلِ عمر بن الخطاب ، وكان مِنْ قَبْلُ يلى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرًا على دمشق عشرين عاماً قبل أن يصبح خليفة قبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بنى أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة لخلافته ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاماً أخرى بدأت بتنازل الحسن بن على له عن الخلافة وانتهت بوفاة معاوية .

ـ ٢ ـ

تولى مقاليد الخلافة فى دمشق طيلة العصر الأموى ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامى كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويجىء إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » .. ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، ومجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر هم :

١ ــ معاوية بن أبى سفيان (٤١ ــ ٦٠ هـ : ٦٦١ ــ ٦٨٠ م) [١] .

٢ ــ يزيد بن معاوية (٦٠ ــ ٦٤هـ : ٦٨٠ ــ ٦٨٣ م) .

٣ ــ معاوية بن يزيد (٦٤ ــ ٦٤ هـ : ٦٨٣ ــ ٦٨٤ م) .

٤ ــ مروان بن الحكم (٦٤ ــ ٦٥ هـ : ٦٨٤ ــ ٦٨٥ م)[٢]

٥ ــ عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ : ٦٨٥ ــ ٧٠٥ م)[٣]

٦ ــ الوليد بن عبد الملك (٨٥ ــ ٩٦ هـ : ٧٠٥ ــ ٧١٥ م) .

٧ ــ سليمان بن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩ هـ : ٧١٥ ــ ٧١٧ م) .

٨ ــ عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩ ــ ١٠١ هـ : ٧١٧ ــ ٧١٩ م) .

٩ ــ يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ : ٧٢٠ ــ ٧٢٤ م) .

---

(١) كان من أعظم ولاته زياد المتوفى عام ٥٣ هـ .

(٢) بدأت فى عهده ثورة ابن الزبير السياسية عام ٦٤ هـ واستمرت حتى قضى عليها عبد الملك عام ٧٣ هـ .

(٣) أشهر ولاته هو الحجاج (٤١ ــ ٩٥ هـ) .

١٠ ــ هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ : ٧٢٤ ــ ٧٤٢ م) .

١١ ــ الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ــ ١٢٦ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٤٤ م)

١٢ ــ يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ ــ ١٢٦ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٤٤ م) .

١٣ ــ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١٢٦ ــ ١٣٢ هـ : ٧٤٤ ــ ٧٥٠ م) .

هؤلاء خلفاء بنى أمية ، شموس دمشق وملوكها وحكامها ، طيلة واحد وتسعين عاماً هى مدة حكم الأمويين فى العالم الإسلامى .

وقد بنى الخلفاء فى دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فاتسع عمرانها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطناً رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب فى العالم الإسلامى ، ووفد إليها الناس فى مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين ماصارت به كعبة المسلمين فى كل مكان ، وأعظم مدن العالم وأجملها ، ونَعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد ، وأبان العرب ــ كما يقول جستاف لوبون ــ عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية ، ودخلوا فى الإسلام أفواجاً ، وتعلموا العربية .

وكانت دولة بنى أمية تعتز بالعرب وترفع من شأنهم ، ولا تنظر إلى الموالى نظرة رعاية أو تقدير ، فدولة بنى أمية عربية أعرابية (١) وكانت بنو أمية لاتستخلف بنى الإماء (٢) ولاتبايع لبنى أمهات الأولاد (٣) وذلك كله قد نقضته الدولة العباسية التى يصفها الجاحظ بأنها عجمية خراسانية .

---

(١) ٣/٢٠٦ البيان والتبيين .

(٢) ٤/١٨٠ العقد .

(٣) ٤/١٨١ العقد . وكان الحجاج يسم أيدى النبط بعلامة يعرفون بها (٧ : ٦٥ الحيوان ط الحلبى) .

وكذلك حافظ الخلفاء الأمويون على الصبغة والثقافة العربية ، فَنَشَّوا أبناءهم بالبادية يتعلمون فيها الشعر والأدب واللغة ، ويكتسبون الملكة والفطرة والطبع ، ويعقدون المجالس الأدبية ، ويستدعون الرواة والأدباء والشعراء ، ويكافئونهم بجزيل العطاء وسنى المواهب ، فوق عطفهم وبرهم بالعرب ، وقصر وظائف الدولة عليهم وحدهم ، من ولايةٍ وقيادة جيوش ، وتنظيم دواوين ، إلى غير ذلك من كبرى المناصب فى السياسة والقضاء والإدارة .

وهكذا شجعت دولة بنى أمية الجنس العربى ، وألقت فى يده زمام أمور الدولة ، بعكس بنى العباس .

وقد نمت الحواضر الإسلامية الكبرى كالكوفة ، والبصرة ، والفسطاط ، ومكة ، والمدينة وسواها من الأمصار .

وكان خلفاء بنى أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التى فُتحت عام ٩٢ هـ ــ ٧١١ م ، وعلى مراكش والجزائر وتونس التى أقام فيها عقبة بن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ ــ ٦٧٠ م ، وصارت منذ إنشائها موطناً من مواطن الثقافة الإسلامية ، كما كانت رايتهم تخفق على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب ، والشام ، وبلاد العراق ، وفارس ، وخراسان ، وداغستان ، وأفغانستان ، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣ هـ ــ ٧١٣ م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ ، وأغار الأمويون فى الشام على القسطنطينية عدة مرات ، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول ، وعلى جزر البحر المتوسط : صقلية ، سردانية ، مالطة ، واحتلوا قبرص ، وكريت ، ورودس ، وهاجموا سواحل إيطاليا ، وغزا فرنسا الحربن عبد الرحمن عام ٩٩ هـ ــ ٧١٧ م ، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها ، وقام عبد الرحمن الغافقى عام ١١٤ هـ ــ ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ، ووصل بجيشه الكبير إلى بواتييه قرب باريس ، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقى وجيشه الباسل ، فى يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ ــ ٢ أكتوبر ٧٣٢ م ، وقتل الغافقى وانسحب

المسلمون ، وفى هذه الهزيمة يقول أديب فرنسى مشهور ، هو مسيو كلود فارير : « فى سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التى نكبت بها الإنسانية فى القرون الوسطى ، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربى طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ، هذه هى الفاجعة التى أريد أن أمقت ذكراها ، وأعنى بها الانتصار البغيض الذى ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقى ، ففى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفى المرء أن يطوف بفكره فى الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى المتسامح السلمى .. » وغزا قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ ــ ٧٠٦ م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسَمَرقند والصُّغْد وغيرها ، وتعمق فى بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر ، وهى أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٩٦ هـ ــ ٧١٥ م رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام . ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك فى حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة فى عهد سليمان بن عبد الملك ، ودخلت بلاد النوبة فى حكم المسلمين ، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا .

هذا هو المجد الإسلامى الأكبر الذى شاده الأمويون وتركوه تراثاً خالداً من تراث المسلمين الروحى والفكرى ، ولايمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى فى دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ، التى كافحت من أجل الحضارة والمدنية ، وتقدم الفكر والثقافة ، والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ، ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة ، التى سعدت بحكم المسلمين خلال تلك الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامى الأكبر .

ـ ٣ ـ

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تُدار على أحدث نظام فى الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشئون العامة ، وكان يختار ولاة يُنيبهم عنه فى إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ ـ **الحجاز** : وينتظم المدينة ، ومكة ، والطائف ، ويقيم الأمير بالمدينة ، وكان يُضاف إليه أحياناً بلاد اليمن ، وأحياناً تكون مستقلة بأمير .

٢ ـ **العراق** : وينتظم الكوفة ، والبصرة ، وخراسان ، ويقيم الأمير فى الكوفة بعض السنين ، وفى البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تُضاف إلى إمارة العراق أحياناً .

٣ ـ **الجزيرة وأرمينية** : وتنتظم بلاد الموصل ، وأذربيجان ، وولايات أرمينية .

٤ ـ **الشام** : وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين ، والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وَقِنَّسْرِين .

٥ ـ **مصر وإفريقية** : وتنتظم بلاد مصر وشمال إفريقية ، وكانت إفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوالٍ لها عن مصر ، ولما فُتحت الأندلس كانت تابعة لإفريقية ، وفى بعض الأحيان كانت تستقل بأمير .

وكان كل أمير يختار كذلك ولاة له على الأقاليم والمدن التى فى إمارته ، ويتمتع بالاستقلال الإدارى فى إمارته ، يقيم الصلاة بنفسه ، وإليه قيادة الجُند ، وجباية الخَراج ، والقضاء بين الناس .

ومع عُسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة . بوساطة البريد الذى استعمله معاوية وخلفاؤه .

وفى هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التى لابد منها لضبط شئون الدولة ، ومن بينها : ديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان الخاتم .

وكانت لغة الدواوين فى الولايات المختلفة بلغاتها ، إلى أن عُرِّبتِ الدواوين فى جميع البلاد الإسلامية ، وصارت اللغة العربية هى لغة جميعها فى شتى الأقاليم والإمارات فى العهد الأموى .

وقد كثرت الأحزاب السياسية فى عصر بنى أمية ، من أمويين ، وعلويين ، وشيعة ، وخوارج ، وغيرهم ، كما انتشرت ــ بدواعث سياسية ــ العصبيات القبلية بين العدنانية والقحطانية وغيرهما ، وذلك مما أدى إلى نشأة الأدب السياسى فى هذا العصر .

الأحزاب السياسية فى عصر بنى أمية

١ ــ كان معاوية رأس الدولة الأموية ، داهية أَرِيباً حَصِيفاً ، وكان يعتز بأسرته الأموية اعتزازًا كبيرًا ، لتؤيد دولته الجديدة وملكه الناشىء الفَتِيَّ .

وكان أظهر أعماله أنه نقل الحكم الإسلامى من خِلَافَةٍ شُورية إلى ملك مُستبدٍّ يحرص على تثبيته ودعمه وإعلاء صرحه ، ولو فوق جثث الضحايا وأشلائهم .

واستعان معاوية فى هذا بأسرته من بنى أمية وبنى عبد شمس ، كما استعان بالقبائل العربية المقيمة فى بلاد الشام وحواليها ، والتى أغدق عليها العطاء ، وهو والٍ لعُمر وعثمان على الشام ، ثم وهو يقارع علىَّ بن أبى طالب ويجالده بالسيوف فى سبيل الملك ، ثم وهو خليفة وأمير للمسلمين بعد تنازل الحسن بن علىّ له عن الخلافة .

وعمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها ببعض ، وتحريض بعضها على الآخرين ، وبذلك أحيا العصبية القديمة التى حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم ، كما حاربها أبو بكر وعمر طول عهد خلافتهما ، رضوان الله عليهما .

لم يكن معاوية يثق بأهل مكة والمدينة لانحياز زعمائهما إلى أهل بيت الرسول ، ولا بالعرب المقيمين فى الكوفة والبصرة ، لأن الكثير منهم شيعيون ، ولكنه جهد فى استمالة العرب القاطنين فى بلاد الشام وعلى مشارفها ، كما جهد فى استمالة القبائل اليمنية ، وتزوج من إحدى بطونها من قبيلة كلب ، أم ابنه يزيد ، كما جهد فى استمالة القبائل القيسية وبعض القبائل المضرية إليه .

وفى سبيل ذلك أكثر من الوعد والوعيد ، وبَذَلَ الأموال ، وفرَّق العطاء ، وأكثر من الإغداق على أهل الحجاز ، وبخاصة مكة والمدينة ، لأنهم أصحاب الرأى النافذ بين المسلمين ، وضاعف عطاء الحسن والحسين أضعافاً كثيرة ، فجعله ألف ألف درهم ، وكان على عهد عمر خمسة آلاف .

وبذلك استتب الأمر لمعاوية الداهية العبقرى ، وكان يقول تصويرًا لدهائه وسياسته : والله لو كان بينى وبين الناس شَعْرَة ما انْقَطَعَتْ ، إنْ شَدُّوا أَرْخَيْتُ وإن أَرْخَوْا شَدَدْتُ .

٢ ــ ولما مات معاوية لم يخلفه أحد فى الملك يشبهه فى الدهاء والسياسة ، فافترق المسلمون ، وشبت الثورات ، وكثرت الأحزاب : من شيعة أنصار بيت علىٍّ فى الحجاز والعراق ، وزبيريين يشايعون آل الزبير فى الحجاز وغيرها ، وخوارج خرجوا على الاستبداد والملك العَضُوض ، وأمويين يدافعون عن ملكهم ونفوذهم .

ووجد ملوك بنى أمية أن لاشىء يعيد إلى دولتهم هيبتها واطمئنانها إلا الاستبداد ، والعسف ، والطغيان ، فوكلوا بالعراق الحَجَّاج بن يوسف الثقفى ، يملأ الأرض رعباً وخوفاً وجَوْرًا ، ووكلوا بالبلاد الأخرى ولاة يأمرونهم باليقظة والحزم ، والدهاء والمكر والطغيان .

وهكذا ظلت الدولة تموج بالعصبيات إلى عهد انقضائها ، بل إنها كانت السبب الأخير فى القضاء عليها وتمهيد الأمر لبنى العباس .

٣ ــ وكان الشعراء يغذون العصبيات ، ويلقون القصائد الجيدة التى تشيد بِذِكْرِ الأحزاب التى ينتمون إليها ، وتندد بمثالب الأحزاب الأخرى ، ومن ذلك أن الهاشميين أخذوا يحرضون الكميت الشاعر على إثارة العصبية بشعره ، جاء فى مروج الذهب للمسعودى أن عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

ابن أبى طالب قال للكُمَيْت : « إنى قد رأيت أن تقول شيئًا تغضب به بين الناس لعلَّ فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض مانحب » فأنشد قصيدة ذكر فيها مناقب بنى نزار من ربيعة ومضر ، وأطنب فى وصفهم وفضلهم على بنى قحطان ، وعَرَّضَ بما كان مِن شأنهم مع الأحباش وغيرهم ، ومن هذه القصيدة قوله :

لنا قَمَرُ السَّماء وكُلُّ نجمٍ تشير إليه أيدى المُهتدينَا
وجدت الله إذ سَمَّى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينَـــا
لنا جعَلَ المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا الجَبِينَا

وقد ذاع هذا القول فى النزارية واليمنية فافتخر كل قبيل بما له من مآثر .. وفى العصر العباسى قال دِعْبِلُ بن على الخُزاعى ينقض على الكميت قصيدته ويذكر مناقب اليمن ، وَيُعَرِّضُ ، بل يُصَرِّحُ ، بنقائض غيرهم من قصيدة له :

أفيقى من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مَر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالى يشيبن الذوائب والقُرونـا
وما طلب الكميت طلاب وتر ولكنَّـا لِنُصْرَتِنَـا هُجِينَـــا
لقد علمت نزار أن قومى إلى نصر النبوة فاخرينا

وهكذا قامت أحزاب سياسية فى هذا العصر كان لها كبير الأثر فى حياة الدولة ، ومن بينها حزب بنى أمية ، وحزب العلويين ، وحزب الزبيريين ، وحزب الخوارج ، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه وخطباؤه .

ونشأ عن إحياء العصبيات المَمقوتة آثار كثيرة ، بعضها سياسى ، وبعضها اجتماعى .

أما الآثار السياسية فقد كثرت الخلافات والثورات والحروب بين العرب

بعضهم وبعض ، وبين العرب والموالى ، وبين أبناء وفروع الأمويين أنفسهم ، وكثر تبعاً لذلك الاضطهاد السياسى لخصوم الدولة .

وأما الآثار الاجتماعية فأنت تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة التفكير الجاهلى على الناس والساسة ، وبذلك انحرف الأمويون ــ بل الناس كلهم ــ عن منهج الإسلام الذى يجعل الناس إخوة متحابين ، ويفرض على الحاكم العدل والمساواة والحِرص على حريات الناس جميعاً .

ولقد واجه الأمويون فى بلاد الشام ظهور العصبية القبلية بين أهالى هذه البلاد ، من اليمنية والمضرية ، وكان الحكم الأموى يعتمد على اليمنيين ، فلما توفى يزيد ولحق به ابنه معاوية الثانى ، اشتد النزاع بين عرب الشام على مَنْ يتولى الخلافة ، ففى شمال الشام كانت قبيلة قيس متذمرة من الأمويين لاعتمادهم على اليمنيين ، فأصبحت بزعامة حاكم دمشق الذى خرج إلى مرج راهط (إلى الشرق من دمشق) وجاءته الأمداد من ولاة حمص وقنسرين وفلسطين . وهناك فى مرج راهط بايعت القيسية عبد الله بن الزبير .

أما قبائل اليمنيين فى بلاد الشام فتعصبوا لبنى أمية بما نالوا من الحظوة فى دولتهم ، ولأنهم أخوال يزيد بن معاوية ، وقد جاءوا جميعاً إلى الجابية (قرية من أعمال دمشق) . وكانوا ــ برغم اتفاقهم على أن تكون الخلافة لأحد الأمويين ــ مختلفين ، فمنهم من يريد خالد بن يزيد ، وآخرون يعترضون على توليته لصغر سنه ويفضلون عليه مروان بن الحكم ، ثم أجمعوا على مبايعة مروان بالخلافة ، على أن يخلفه بعد وفاته خالد بن يزيد ، وبعد خالد يلى الحكم عمرو ابن سعيد بن العاص .

ولما تم أمر الخلافة لمروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ ، خرج من الجابية فى جموع اليمنية إلى مرج راهط حيث توافدت جموع القيسية ، وهناك دارت بين الفريقين موقعة كان النصر فيها حليف مروان ، وبذلك توطدت سلطته فى بلاد الشام .

ولاشك أن موقعة مرج راهط كانت حربا بين القيسية واليمنية أكثر مما كانت نزاعاً بين بنى أمية وابن الزبير ، وظهرت العصبية القبلية فى الدولة الإسلامية بعد هذه الموقعة بمظهرها السياسى ، فانقسم العرب فى كل قطر إلى يمنية ومضرية .

على أن تعصب الخلفاء لقبيلة دون أخرى لم يظهر بصورة واضحة إلا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، الذى قضى فترة خلافته فى إصلاح أمور الدولة حتى نال رضاء جميع رعاياه .

ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، واجه نزاعاً بين عرب الشمال والجنوب ، أو بين مُضر واليمن ، ذلك أن يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة فرَّ من السجن ولحق بالبصرة ، حيث انضم إليه كثير من يمنية العراق ، واشتد خطره ، وأصبح يهدد كيان الدولة ، فأرسل إليه يزيد ابن عبد الملك جيشاً كبيرًا ، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة يزيد بن المهلب وقتله . وكان من نتائج هذه المعركة أن انحاز يزيد بن عبد الملك إلى جانب القيسية ، وبذلك ضعف شأن العنصر اليمنى .

ولم يتبع هشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء القبائل المختلفة ، فلما رأى أن القيسية ، اشتد أمرها ، خشى من ازدياد نفوذها على الدولة ، فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية ، رغبة فى إعادة التوازن بينهما ، فعزل الولاة المضريين وأحل محلهم بعض اليمنيين ، فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق ، وولى أخاه أسدًا على خُراسان ، ولم يلبث أن تحول عن اليمنيين إلى المضريين ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سَيَّار خراسان .

أخذت اليمنية تظهر استياءها من الأمويين بسبب مقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق من قِبَل هشام بن عبد الملك ، ورأى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذى ولى الخلافة بعد هشام أن يلزم جانب المضريين ،

فأثارت هذه السياسة عوامل السخط والغضب فى نفوس اليمنية ضد الوليد ، لأنه قتل زعيمهم وأقصاهم عن مناصب الدولة ، فتآمروا على التخلص منه طمعاً فى استعادة نفوذهم ، وما لبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فانحاز إلى اليمنيين وأخذ يولى العمال منهم ، غير أنه لم يستمر طويلا فى الحكم ، فقد توفى بعد ستة أشهر ، فآلت الخلافة من بعده إلى أخيه إبراهيم ، لكنه لم يحظ بالاحترام الذى لقيه من سبقه من الخلفاء ، وظل الأمر على هذه الحال ، إلى أن سار مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينية إلى الشام ، مطالباً بدم الوليد بن يزيد ، وانضمت إليه القيسية ليكيدوا لليمنية ، ومالبث أن تمكن من التغلب على جند إبراهيم ودخل الشام ، ثم بايعه أهلها ، وبذلك أصبح خليفة المسلمين سنة ١٢٧ هـ على أن مروان بن محمد ما لبث بعد أن آلت إليه الخلافة أن تعصب للقيسية فأثار اليمنية الاضطرابات والقلاقل ، كما خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وانضمت إليه اليمنية ، وقد اضطر مروان إزاء الفتن والقلاقل التى شغلته فى بلاد الشام إلى الانتقال منها إلى إقليم الجزيرة شمال العراق .

وفى إيجاز شديد نستطيع أن نلمح الآثار السياسية لقيام الحكم الأموى فى استقرار السلطان فى أيدى الحزب الأموى الحاكم ، وفى تصارع القوى السياسية فى الدولة فى هذا العصر ، والتى تتمثل فى الحزب الرئيسى ، وهو حزب بنى أمية ، وفى الأحزاب المعارضة ، من علويين ، وخوارج ، وَزُبَيْريين ، وسواهم ، وكانت سياسة الدولة عربية خالصة ، مما أثار حقد الموالى عليها وكراهيتهم لها ، ونجم عن هذه السياسة قيام الثورات السياسية فى عرض البلاد وطولها ، وعدم استقرار الأمن ، وقيام الدعاية السرية للهاشميين .

الموالى فى خدمة الدولة

واتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد بنى أمية ، فشملت الأندلس ، وشمال إفريقية ، والشام ، وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، وجزءًا من الهند ، كما وصلت الفتوحات الإسلامية إلى سوى ذلك من النواحى والبلاد .

وخضعت هذه الأمم كلها للحكم العربى ، سواء منها الدول ذات الحضارة أو الدول التى لم تصطبغ بصبغتها ، فوجدوا فى الإسلام العدل والأمن والسلام ، وأخذوا يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة الدين والقرآن ، ولحاجتهم إليها فى التفاهم مع الولاة والحكام والعمال ، وهى فوق ذلك اللغة الأولى فى العالم كله آن ذاك ، فهى لغة الثقافة والآداب والعلوم والفنون والسياسة .

وكان لبُعد الموالى عن سياسة الدولة وشئونها العامة بإقصاء الأمويين لهم ، كما كان لانحدارهم من عناصر متحضرة أخذت بقسط من الثقافة والمدنية والمعرفة ، أثر كبير فى تفوقهم فى ميدان العلم والأدب .

فجلسوا فى مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلومه ، والحديث وروايته ، والتاريخ وأيامه ، ومفاخر العرب ومآثرهم ، كما جلسوا فى مجالس الأدباء والشعراء والرواة يثقفون أنفسهم بالشعر ، ويتأدبون بروايته وَبِنَظْمِه أحياناً .

فكان من الموالى الشعراء ، كزياد الأعجم ، وإسماعيل بن سيّار ، وأخيه موسى ، وبَشّار .

وكان منهم العلماء فى علوم الدين والشريعة ، كنافع ، وربيعة الرأى شيخ الإمام مالك ، وسليمان بن يسار ، وكان من أعلم الناس وأفقههم ، وكانوا بالمدينة ، ومنهم مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء بمكة .

والحسن بن يسار ، والحسن البصرى ، وابن سيرين بالبصرة ، ويزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد فى مصر ، ومكحول بن عبد الله فى الشام .

إلى غير هؤلاء من الأعلام فى الدين والشريعة والحديث والتفسير واللغة من الموالى فى عصر بنى أمية .

ولما كانت اللغة القبطية ولغة الروم وآدابهما وثقافتهما لاتزال باقية فى مصر والشام ، واللغة الفارسية لاتزال ذائعة فى بلاد فارس وبعض جهات من العراق ، فقد كانت دواوين الدولة ومصالحها الحكومية وأعمالها تكتب فى مصر باللغة القبطية ، وفى الشام باللغة الرومية ، وفى العراق وفارس بالفارسية ، وكان لابد من الاستعانة بالموالى فى هذه الدواوين للكتابة فيها ، وظل الأمر على ذلك مدة حتى حولت دواوين [1] العراق إلى اللغة العربية بأمر الحجاج ، ودواوين الشام فى عهد عبد الملك ، ودواوين مصر فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبذلك انفسح المجال للعرب فى هذه الناحية أيضاً .

وكان الذى نقل دواوين الخراج فى العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج ، وكان من الموالى . أما دواوين الشام فكانت بالروحية ، وكان يتولى أمرها سرجون بن منصور من عهد معاوية إلى أيام عبد الملك ، ثم نقلت إلى العربية على يدى سليمان بن منصور . وأما دواوين مصر فكانت بالقبطية وحولت إلى العربية فى عهد الوليد على يدى عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر . وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب .

---

(١) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أهل العطية « المرتبات » ثم نقل إلى المقر الذى يجتمع فيه الموظفون ومعهم هذه الصحف تعريباً .

معاوية بن أبى سفيان رأس الدولة الأموية
(٤١ ــ ٦٠ هـ ــ ٦٦١ ــ ٦٨٠ م)

ــ ١ ــ

دان المسلمون للدولة الأموية التى أنشأها معاوية بن أبى سفيان تسعين عاماً (٤١ ــ ١٣٢ هـ) أفضت الأقدار إلى معاوية منها بعشرين عاماً كاملة غير منقوصة ، وهو عهد ليس كبيرًا فى أعمار وحياة الممالك .

وينتسب معاوية إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان أمية ممن اتصل بهم الشرف فى الجاهلية ، فَسَاوَق (١) بشرفه ورفيع مقامه عمه هاشم بن عبد مناف ، فلا عجب إذا تنافس البطنان جاهلية وإسلاماً ، وكان لتنافسهما هذا الأثر البليغ فى مصاير الدولة الإسلامية .

وكان أمية تاجرًا كثير المال والعيال ، فكان له عشرة وَلَد (٢) امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وسفيان وأبو سفيان ، وكان حرب بن أمية قائد قريش يوم الْفِجَار (٣) ، كما قاد أبو سُفيان قريشاً فى حروبها ضد الرسول ﷺ وهو صاحب العير التى وقعت من أجلها موقعة بدر الكبرى ، وكان رئيس الجيش النافر لحماية قريش عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه ،

---

(١) يقال تساوق القوم : تفاخروا ، وتسايروا ، وتنافسوا .

(٢) يُطلق الوَلَدُ فى اللغة على الذكر والأنثى ، والمثنى والمجموع ويعنى بها هنا الأولاد الذكور .

(٣) حرب الفجار وقعت بين قريش وحلفائها وبين هوازن قبل مبعث النبى (ص) وقد حضرها النبى وعمره زهاء عشرين سنة .

فكان أبوه صاحب العير ، وجده صاحب النفير ، وبهما يُضرب المثل ، فيقال للخامل : « لافى العير ولافى النفير » .

ولد معاوية بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة ، وأسلم يوم الفتح هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، واتخذه رسول الله ﷺ كاتباً للوحى تقديرًا لمركز والده ، وتألُّفاً منه لأسرته ، كما أمر رسول الله منادياً ينادى بمكة يوم الفتح « مَنْ أغمد سيفه فهو آمِن ، ومَن دخل المسجد فهو آمِن ، ومَن دخل دار أبى سفيان فهو آمِن » ، وهو شرف عظيم لم ينله أحد . وإذا كان رسول الله ﷺ قد رمى من ورائه إلى حقن الدماء وتآلف الصفوف وتوحيد الكلمة ، فقد رأى بنو أمية فى ذلك توطيدًا لشرفهم ، وتقديرًا من رسول الله ﷺ لرفيع مقامهم ، بحيث سوى بينهم وبين بنى هاشم أسرته ، فلما حصلت المشادة بينهم وبين على بن أبى طالب لم ير معاوية — وهو كبيرهم — عظيم أمر فى المطالبة بالخلافة والسعى لها ، خصوصاً أنه قد انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام .

والواقع أننا أمام ظاهرة خطيرة تتعلق بموقف بنى أمية من الخلافة عامة ، وموقف معاوية منها خاصة .

فقد ولى الصِّدِّيقُ يزيدَ بن أبى سفيان قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لغزو الشام ، وولاه الفاروق دمشق لما تم فتحها ، كما أثبت أخاه معاوية بعد وفاته على دمشق وما حولها ، فلما آل الأمر إلى عثمان بن عفان أطلق يده فى الشام كلها ، من مشرقها إلى مغربها ، وظل شأن معاوية فى تعاظم وتقدم حتى مقتل عثمان وقيام علىٍّ ، فاستقل معاوية بالشام ، وامتنع عن مبايعة على ، متهماً إيَّاه بالهوادَة فى أمر عثمان ، وإيوائه قتلته فى جيشه ، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ومحاربة على ، فوقعت الحروب والفتن التى مزقت شمل المسلمين .

وبايع أميرَ المؤمنين علىَّ بن أبى طالب أربعون ألفاً على الموت ، وأقسموا عليه أن يمضى بهم إلى عدوه ، فما يبرحون به حتى يقضى الله أمره ، ويصدق وعده ، فبينما هو يتحفز للسير بهم إلى الشام قُتل رضى الله عنه ، فبايع الناس ولده الحسن ، فبلغه مسير معاوية فى أهل الشام إليه ، فتجهز بجيشه وسار من الكوفة إلى لقاء معاوية ، فنزل المدائن ، وكان قيس بن سعد بن عبادة على مقدمته فى اثنى عشر ألفاً ، فنادى مُنَادٍ فى الجيش : أن قيس بن سعد قُتِلَ فانفروا ، فنفروا بسرادق الحسن فنهبوا متاعه ، حتى نازعوه بساطاً كان تحته ، فعلم عندئذ أن لا قِبَلَ له بمقاومة معاوية فى مثل هذا الجند المضطرب المتثاقل المختلف ، فعقد معه صلحاً نزل له فيه عن حقه فى الخلافة ، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شُورَى بين المسلمين يُوَلُّون عليهم مَنْ أحبوا ، فتم لمعاوية ماكان يطمح له من سلطان الخلافة ، ودخل الكوفة فبايعه الناس [1] وكتب الحسن إلى قيس بن عبادة ــ وكان لايزال فى اثنى عشر ألفاً من جنده ــ يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ففعل بعد أن اشترط على معاوية الأمان له ولشيعة علىٍّ عَلَى ما أصابوا من دماء وأموال ، ورحل الحسن بعد ذلك إلى المدينة ولزم منزله فيها حتى قبضه الله إليه .

الحركات المعارضة :

لقد كانت الأمة الإسلامية فى هذا العهد تضطرب فى ثلاثة أحزاب :

شيعة بنى أمية ، من أهل الشام وغيرها من الأمصار ، وكان يدعى هؤلاء أن الخلافة فى قريش ، وبنو أمية أَوْلَى بها ، فَهُم سادة قريش فى الجاهلية ، وسادة فى الإسلام .

وشيعة علىٍّ بن أبى طالب ، وكانت تنزل العراق ، وأقلها فى بعض

---

(١) كان ذلك فى الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ .

الأمصار الإسلامية ، وهذه كانت ترى فى الخلافة رأياً غير رأى بنى أمية ، وتذهب إلى أن علياً أحق بها من سواه ، وأن أولاده هم الخلفاء من بعده .

وكان الخوارج ثالث هذه الشيع ، وكانوا ينكرون مذهب الفريقين ، ولا يرون كبير أمر فى استحلال دمائهم ومقاتلتهم ، لخروجهم على الدين فى زعمهم ، وكانوا يعتقدون بأن الخلافة حَقٌّ لكل مسلم مادام كُفؤاً لها ، لافرق فى ذلك بين قُرشيٍّ وغير قُرشى .

والواقع أن المتتبع لتاريخ الإسلام فى أول نشوء الدولة الإسلامية لا يستطيع أن ينكر ماكانت تضطرب به هذه الأحزاب من اختلاف فى حدود المذهب الذى يدعون الناس إليه ، وينادون بأنهم على حق فيه ، فالمعالم لم تكن واضحة ، ومناهج التفكير لم تكن سهلة المعالم واضحة المسالك ، ولعل هذا من الأسباب التى مكنت للفتنة وزادتها اشتعالا وقوة .

يقول نيكلسون : إن سياسة بنى أمية كانت ترمى إلى جعل الخلافة مُلْكاً كِسروِيًّا ، وليس أدل على ذلك من قول معاوية « أنا أول الملوك » (١) .

— ٢ —

وقد واجهت الدولة الأموية — على قصر مدة خلافتها — فِتَناً وثورات منذ قيامها حتى سقوطها سنة ١٣٢ هـ . وإذا كانت ثورات الشيعة والخوارج قد اتخذت طابعاً مميزًا كان له أثر كبير فى إضعاف الحكم الأموى ، فإننا يجب ألَّا نُغْفِلَ ماكان لعبد الله بن الزبير وخروجه على الأمويين بالحجاز وأَخْذَهُ البَيْعَة لنفسه فى بعض الولايات الإسلامية من أثرٍ فى تقلص نفوذ الأمويين فى الدولة العربية .

حركات الخوارج :

عُرف الخوارج بهذه التسمية لخروجهم على الخليفة الرابع على بن أبى طالب

(١) تاريخ اليعقوبى .

بعد أن كانوا من أتباعه بسبب قبوله التحكيم ، كما أطلقوا على أنفسهم اسم « الشُّرَاة » أى الذين شَرَوْا آخِرَتَهُم بِدُنْيَاهم ، وعُرفوا أيضا بِاسْم « المُحَكِّمَة » أى الذين يقولون لاحُكْمَ إلَّا لله .

واجه معاوية بن أبى سفيان مُعارضة قوية منهم لاعتقادهم أنه لم ينل الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وعملوا على مناوأة سلطته فى كلٍّ من الكوفة والبصرة ، فوجه إليهم زياد ابن أبيه والى العراق ، فعمل على مطاردتهم . ولما ولى ابنه عبيد الله البصرة ظل يتعقبهم حتى قضى على كثير منهم ، وبعد وفاة معاوية ثاروا فى وجه يزيد ، لأنه فى رأيهم لم يتولَّ الخلافة بالانتخاب ، وحاولوا الانضمام لعبد الله بن الزبير فى مكة ، ولما وجدوا أنه على خلاف رأيهم خرجوا من مكة ، وانقسموا قسمين : فريق اتجه إلى البصرة ، وفيهم نافع بن الأزرق الحنفى ، وقد عُرِفَ أتباعه بِالأَزَارِقَة ، وفريق اتجه إلى اليمامة حيث ولوا عليهم نَجْدَة بن عامر الحنفى ، وهؤلاء عرفوا بالنَّجْدَات .

اشتد خطر الأزارقة من الخوارج فى البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فوقع اختيار أهل البصرة على المُهَلَّبِ بن أبى صُفرة لمحاربتهم لما عُرِفَ عنه من الشجاعة وحُسن الرأى ، فنهض لقتال الخوارج فى عشرين ألفاً من قبيلة الأزد وأهل البصرة ، فمضى ناحية المشرق يتبعهم حتى انتصر عليهم انتصارًا حاسماً سنة ٦٦ هـ انتهى بمقتل زعيمهم . على أن الخوارج مالبثوا أن استعادوا قوتهم بقيادة قَطَرِىٍّ بن الفُجَاءة ، فواصلوا زحفهم فى اتجاه البصرة حتى أصبحوا يهددون المدينة نفسها ، وعاد المُهَلَّب بن أبى صُفرة إلى محاربتهم ، تنفيذًا لرغبة عبد الملك بن مروان ، الذى طلب من أخيه بشر ــ بعد أن أسند إليه ولاية البصرة ــ أن يمد المُهَلَّب بجيش من أهالى هذه المدينة ، واستطاع المُهلب بمعاونة الأمداد التى وصلت إليه من العراق فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى أن يطرد الأزارقة الذين يقودهم قَطَرِىُّ بنُ الفُجَاءَةِ من فارس ، ولم يزل يتعقبهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة .

هدأت حركة الخوارج فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، واستطاع عمر بن عبد العزيز بما عُرف عنه من ميل إلى المسالمة إلى الاستماع إلى آرائهم وإقناعهم بحرصه على التزام جادة الصواب .

ولم يزل الخوارج يثورون بالأمويين كلما أُتيحت لهم الفرصة حتى اشتدت وطأتهم فى أواخر عهد بنى أمية ، فقاموا بِعِدَّة ثورات فى الكوفة ، وبعض مدن الحجاز ، واليمن ، فحاربهم مروان بن محمد ، آخر خلفاء الأمويين ، ولم يشغله تفكك عُرى دولته عن تعقب حركاتهم ، والعمل على إخمادها .

كان معظم الخوارج إلى ذلك الوقت من قبائل بكر وتميم ، ومن القبائل التى تنزل شرقى بلاد العرب ، وكانوا يقولون : إن المسلمين سواء ، وإنه لافضلَ لأحدٍ على الآخر إلا بالتقوى ، وإن الإمامة حق لكل مسلم يتصف بالصفات الحَسَنة . وهكذا خالف الخوارج نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة فى بيت النبى ﷺ ، وقصرها على على بن أبى طالب وآل بيته . كما خالفوا أهل السنة القائلين بأن الخلافة فى قريش .

حركات الشيعة :

منذ مقتل عثمان ابتدأت تظهر نواة حزب جديد يُناصر عليًّا ، اقتصرت دعوته فى بادئ الأمر على أحقية على فى الخلافة ، ثم ضعف شأن شيعة علىٍّ فى العراق بعد مقتله ، لكنهم مع ذلك جاهروا بتذمرهم من الصلح الذى عقده الحسن مع معاوية ونزل بمقتضاه عن حقه فى الخلافة ، وازداد حنقهم على معاوية حين أقر سَبَّ علىٍّ بن أبى طالب على المنابر ، وبخاصة فى الكوفة .

اشتدت معارضة الشيعة للأمويين منذ ولى الحسين بن على رياسة الشيعة بعد وفاة أخية الحسن سنة ٥١ هـ . وكان يرى أنه أحق المرشحين بالخلافة ، إذْ أصبح الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ، فلما ولى يزيد بن معاوية

امتنع الحسين عن مبايعته ــ وكان إذ ذاك فى المدينة ــ فخرج منها قاصدًا مكة ومعه نساؤه وأهل بيته ، وفى مكة تلقى رسائل من أهل الكوفة يدعونه فيها للقدوم عليهم ليتعرف حقيقة نواياهم ، لكن عبيد الله بن زياد والى العراق أخذ يتعقب أخبار مسلم بن عقيل حتى قتله .

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين ــ حين كثر مبايعوه من أهل الكوفة ــ يدعوه للمسير إليه ، فخرج الحسين من مكة إلى الكوفة يريد اللحاق به ، ولم يكن يعلم بما جرى له ، ولم يكد يعلم عبيد الله بن زياد باقتراب الحسين من الكوفة حتى أرسل قوة لمنعه ، وتصدى له عمر بن سعد ابن أبى وقاص ، وانتهى الأمر بقتل الحسين وأتباعه بمَكانٍ يُقال له : « كَرْبَلاء » فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، ولم ينج من هذه المعركة إلا خمسة هم ابنه على زين العابدين ، وكان مريضاً فلم يحضر المعركة ، وأخته السيدة زينب (رضى الله عنها) وابنه عمر أيضاً ، وابنتاه فاطمة وسكينة .

كانت حادثة كربلاء سيئة الأثر على المسلمين ، فقد ترتب عليها ظهور شعور عدائى فى العراق وفارس ضد بنى أمية ، استغله أحفاد العباس بن عبد المطلب عم الرسول فى العمل على تقويض دعائم الخلافة الأموية .

رأى الشيعة بالكوفة بعد مقتل الحسين أنهم بحاجة لتنظيم أنفسهم ، فاجتمع نفر منهم وتذاكروا دعوتهم للحسين وعدم إغاثتهم له حتى قُتل بالقرب منهم فى كربلاء ، وتزعمهم رجل يدعى سُليمان بن صُرَدٍ الخُزاعى ، وظلت حركة هؤلاء النفر من الشيعة سرية حتى توفى يزيد بن معاوية ، فأخذوا فى إظهار دعوتهم ، فساروا ذات ليلة إلى قبر الحسين ، وهناك أقاموا يوماً وليلة وصاحوا طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين ، ولذلك عُرِفُوا فى التاريخ بالتَّوَّابين ، ثم ساروا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد حيث التقوا بجيش الشام ، فدارت بين الفريقين معركة فى عين الوردة ، من أرض الجزيرة سنة

٦٥ هـ انتهت بهزيمة الشيعة ، وقتل زعيمهم سُليمان بن صُرد وعدد غير قليل منهم ، ثم رحلت فلولهم إلى الكوفة ، حيث ظلوا مقيمين بها إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة المُختار بن أبى عُبيد الثَّقَفِىّ .

اتفق رأى التَّوَّابين بعد عودتهم من الكوفة على أن يكون المُختار زعيماً لهم ، فأخذ يحرضهم على النهوض للأخذ بثأر الحسين ، فانضم إليه بعض العرب وعدد كبير من الموالى ــ وكان أغلبهم من القُرى ــ كما أخذ البيعة لنفسه من أهالى الكوفة ، وشرع ينتقم من قتلة الحسين ، فأعد جيشاً بقيادة إبراهيم بن مالك بن الأشتر لمحاربة عبيد الله بن زياد ــ وهو يومئذ بالموصل ــ مع فريق كبير من جيش الشام ، فلما التقى الجيشان على باب الموصل انهزم جيش الشام وقُتل عبيد الله بن زياد وكثير من كبار رجال الدولة الأموية . وبذلك أخذ المختار ثأر الحسين كاملا .

اتخذت الحركة التى قام بها المختار فى الكوفة صفة دينية بجانب مظهرها السياسى ، على إثر انضواء الشيعة تحت زعامته وانضمام الموالى إليه ، فكون المختار فرقة شيعية من أتباعه تُعرف بالمُختارية أو الكَيْسَانِيَّة ، نسبة إلى كَيْسَان ، رئيس حرس المختار .

هدأت حركة الشيعة فى عهد الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الذى منع سَبَّ علىٍّ بن أبى طالب على المنابر ، وجعل مكانه قوله تعالى : **﴿ إنَّ الله يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وَإيتاءِ ذى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾** .

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك خرج عليه زيد بن على زين العابدين (ابن الحسين بن على) . وكان يرى أنه أهل للخلافة ، وقد حرضه أهل الكوفة على القيام فى وجه هشام ، على الرغم من أن بعض أقاربه حذروه من وعودهم . ولما تكاثر عدد أنصار زيد بالكوفة دعاهم للخروج فلم

يستجب له سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ،ثم اشتبك مع جند الشام فى عدة معارك انتهب بهزيمته وقتل سنة ١٢٢ هـ .

حركة عبد الله بن الزبير فى الحجاز :

شرع يزيد بن معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة سنة ٦٠ هـ فى أخذ البيعة من زعماء الحجاز ــ وكانوا إذ ذاك من مُعارضى الحكم الأموى ــ فبعث إلى واليه على المدينة الوليد بن عُتبة بن أبى سفيان يأمره بأن يأخذ البيعة من الحُسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . لكن هذا الوالى لم يعمد إلى تنفيذ أوامر يزيد بالسرعة المطلوبة ، وبذلك أتاح لكل من الحسين بن على وعبد الله بن الزبير فرصة الخروج إلى مكة .

ولما غادر الحسين بن على مكة قاصدًا الكوفة ، خلا الجو لعبد الله بن الزبير فى مكة فظل مقيمًا بها حتى بلغه مَقْتَلُ الحُسين ، فأظهر ماكان يخفيه ، وأخذ البيعة من أصحابه بمكة .

كذلك اشتد السخط فى المدينة المنورة على خلافة يزيد ، فأعلنوا خلعه وولوا على أنفسهم عبد الله بن حنظلة ، وهكذا أصبح المُبَايِعُونَ بالخلافة ثلاثة : يزيد بن معاوية فى دمشق ، وعبد الله بن الزبير فى مكة ، وعبدالله بن حنظلة فى المدينة .

لم ير يزيد إزاء موقف أهل المدينة العدائى من خلافته بُدًّا من أن يلجأ إلى الشدة ، فأرسل إلى المدينة جيشاً من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّى ، دارت بينه وبين أهل المدينة معركة هائلة عند جهة الحَرَّة ــ وهى موضع بظاهر المدينة ــ أسفرت عن هزيمتهم .

ولما فرغ مسلم بن عقبة المرى من المدينة ، وأخذ البيعة من كبار أهلها ليزيد أراد الخروج إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير ، الذى كان إذ ذاك قد أخذ

البيعة لنفسه بالخلافة ،لكن مسلم بن عُقبة توفى فى الطريق فخلفه الحُصَيْنُ بن نُمَيْر الذى سار على رأس الجيش الأموى حتى بلغ مكة وأحاطها بجيشه . أمّا أصحاب عبد الله فتحصنوا فى البيت الحرام ، وبينما القتال دائر بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فوقفت الحرب بين الفريقين .

لم تقتصر دعوة عبد الله بن الزبير على بلاد الحجاز ، بل انتشرت فى بعض أمصار العراق ، والشام ، ومصر ، فلما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤ هـ ، زحف إلى مصر واستردَّها من عامل ابن الزبير ، ثم أعد حملتين ، وجه إحداهما إلى الحجاز ، والأخرى إلى العراق ، فَهُزمت حملة الحجاز ولم تَقُمْ حملة العراق بشىء يذكر فى حياة مروان ، لأن الموت عاجله سنة ٦٥ هـ .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، وجه اهتمامه إلى القضاء على نفوذ ابن الزبير فى كل من بلاد العراق والحجاز ، فتغلب أولا على أخيه مصعب بالكوفة ، وعهد إلى الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفِى بالمسير إلى مكة على رأس حملة من جند الشام لإخماد حركة عبد الله بن الزبير ، فلما دخلها فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ ، شرع فى حصارها ، ونصب المجانيق على جبال أبى قُبَيس ورمى الكعبة بها ، وكان عبد الله بن الزبير وأصحابه معتصمين ببيت الله الحرام .

واستمر الحصار ستة أشهر حتى تجرع أهل مكة أَلَمَ الجوع ، واضطر كثير من أنصار ابن الزبير إلى الانفضاض من حوله ، لكنه برغم ذلك ظل يقاتل الجيش الأموى حتى قُتل فى جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ . وأخذ الحجاج البيعة من أهل مكة لعبد الملك بن مروان . ثم أُسندت إليه ولاية الحجاز .

مصر تحت الحكم الإسلامى :

كان الوالى فى مصر عمرو بن العاص ، ولم يزل والياً عليها حتى تُوفى سنة ٤٣ هـ ، فولى معاوية بدله ابنه ، ثم عزله وولى غيره .

وكانت الفسطاط فى مقدمة المدن الإسلامية التى ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية ، وَاخْتُطَّتْ عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لُهَيْعَة (٩٦ ــ ١٦٠ هـ) وهو من أكبر المصادر الذين يُرْوَى عنهم كثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد (٩٤ ــ ١٧٥ هـ) أحد الأئمة الذين يُقْرَنُونَ بمالك وأبى حنيفة ، لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعى ودَرَّسَ فيها ، ووضع مذهبه الجديد . ومن علمائها كذلك نافع المتوفى عام ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء : جميل ، وكُثَيِّر ، ونصيب ، وابن قيس الرقيات ، وأيمن ابن خُزيم ، وأقام فيها أبو العيال الهُذَلى المتوفى عام ٤٦هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر فى ظلال الحكم الإسلامى (عام ٢٠ هـ ــ ٦٤٠ م) بفضل عمرو بن العاص (٤٧ ق هـ ــ ٤٣ هـ : ٦٦٣ م) ، وقد فرغ ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص (٣٦ ق هـ ــ ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .

وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثير ، وهاجر كذلك إليها الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصرَ أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم وَلِيَا الحكم مرتين ، وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائباً عن ابن الزبير ، ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان من هؤلاء من بيت بنى أمية : عبد العزيز بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ) ، وعبد الله بن عبد الملك الذى وليها (عام ٨٦ هـ ــ ٧٠٥ م) ، وقد أصدر (عام ٨٦ هـ) أمرًا باستعمال اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تَعَلُّم العربية ،

وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجاً . وفى عام ٨٦ هـ حُولت دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، الذى ولى مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى قبل عام ١٠٩ هـ .

الشام موطن الخلافة :

كانت دمشق عاصمة الأمويين ، ومنارة العلم والثقافة والأدب ، ومَقْصد الناس من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ ، وبها كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، فوق من كانوا يفدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو حرصاً على مال الخلفاء والأمراء . وممن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقى .

وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صنعة الطب والكيمياء والنجوم عن مسيحيى الشام ، وتوفى عام ٨٩ هـ . ويقول الجاحظ فيه : كان خطيباً ، شاعرًا ، كثير الأدب ، حكيماً ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقَرَّبَ أهل الحكمة ، وترجم كتب النجوم والطب ، والكيمياء ، والحروب ، والآداب ، والآلات ، والصناعات [١] .

وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض رسائل أرسطو . وكان عدى بن الرقاع يعيش فى الشام .

وكان فى الشام : مُعاذ وعُبادة بن الصَّامِت وأبو الدَّرْدَاء ، وعمر بن عبد العزيز ، والأَوْزَاعى ، ورجاء بن حَيْوَةَ وسواهم .

وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامى ، بعد أن كانت السيادة للغة الآرامية أو اليونانية .

---

(١) ٩٣ رسائل الجاحظ للسندوبى .